خواطر وصور أبهاوية (*)

د. إسحاق بن عبد الله السعدي الغامدي

(*) دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، لغيثان بن جريس، (الطبعة الأولى) (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م)، (الجزء الحادي عشر) ص ص ١٨٠ – ٢٠٠ .

ثالثاً: خواطر وصور أبهاوية. بقلم د. إسحاق بن عبدالله السعدي الغامدي [١].

م	الموضوع	الصفحة
أولاً:	مدخل	١٨١
ثانياً:	خواطر وصور أبهاوية	١٨٢
	١- توطئه	١٨٢
	٢- أبها القضية	١٨٢
	٣- معالجات	١٨٧
	٤- شفت أبها	١٩٠
	٥- خواطر أبها الطفولة بين الواقع والخيال	١٩٢
	أ – الطفولة والواقع	١٩٢
	ب- الطفولة والخيال	١٩٤
	٦-خاطرة أبها الطبيعة والطبائع	١٩٥
	٧-خاطرة أبها شكوى وحنين	١٩٦
	٨- صور تاريخية أخرى	١٩٦
ثالثاً:	رأي وقول	٢٠٠

(١) الدكتور إسحاق من أب غامدي وأم عسيرية، ولد في مدينة أبها عام (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، تلقى تعليمه العام والجامعي في أبها وتخرج في كلية الشريعة بأبها، وعين معيداً في قسم الثقافة الإسلامية في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض عام (١٤٠١هـ/١٩٨١م). حصل على درجة الماجستير من جامعة الإمام عام (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) وعنوان رسالته: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (منهجها وآثارها). وحصل على درجة الدكتور من جامعة الإمام أيضاً عام (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، وعنوان رسالته: تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه. وهذه الرسالة طبعتها ونشرتها الجامعة عام (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). عمل أستاذاً مساعداً في قسم الثقافة الإسلامية بالجامعة لسنوات عديدة، ثم تقاعد تقاعداً مبكراً عام (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م). مارس العديد من الأعمال الإدارية، ودرس الكثير من المحاضرات في مجال تخصصه، حصل على العديد من الدورات الأكاديمية والعلمية والمهنية، وشارك في عدد من الندوات واللقاءات والمؤتمرات المحلية والإقليمية والعالمية. (ابن جريس)

أولاً: مدخل:

الدكتور إسحاق ممن ولد وعاش في مدينة أبها منذ سبعينيات القرن الهجري الماضي (١٤هـ/ ٢٠م)، وشاهد حياة أبها وأهلها خلال العقود الثلاثة الأخيرة من ذلك القرن، ثم عاصر ورأى ما جرى لحاضرة أبها من نمو وتطور مدني[١]، وكذلك ما أصاب أرضها وجمالها من الإتلاف والسلبيات البيئية التي يصعب حصرها في هذه الورقات[٢]. وفي نقاش مع هذا الأستاذ الأكاديمي (إسحاق الغامدي) حول حاضرة أبها وما جاورها، وجدته يحن كثيراً لحياته في مدينة أبها أيام طفولته وصباه، بل يذكر بعض الروايات الاجتماعية والحضارية التي رآها وعاصرها في العقود الأخيرة من القرن الهجري الماضي (العشرين الميلادي)[٣]، وفي الوقت نفسه كان متألماً مما اعترى طبيعة أبها وعسير من التلف نتيجة التطور الحضاري والتوسع العمراني، وفي نهاية حديثه ذكر لنا أنه دون بعض الذكريات عن بعض أوطان عسير وبخاصة حاضرة أبها، فقلت له، أرجو إرسال هذه الذكريات لعلنا نجد فيها بعض الصور التاريخية التي ندونها ونحفظها لأبنائنا وأحفادنا، وبعد طلبي هذا تجاوب معنا مشكوراً وأرسل لنا رزمة من الأوراق المتناثرة التي تحتوي على ذكريات ونفثات وأقوال متفرقة، وجميعها تدور في فلك نواحي من جنوبي البلاد السعودية الممتدة من أبها إلى الباحة[٤]، وجل الحديث في هذه المدونات عن مدينة أبها وما جاورها[٥]. وعند قراءة هذه الأوراق وجدت فيها

---

(١) مدينة أبها، أو مدن جنوبي البلاد السعودية تستحق أن يفرد لها عشرات الدراسات العلمية في شتى الجوانب، ومن يدرس النمو والتطور الذي تمر به هذه الأوطان السعودية فسوف يسدي لطلاب البحث والمعرفة فضلاً كبيراً. (ابن جريس)

(٢) إن عجلة التنمية سلاح ذو حدين فهي تطور الإنسان والبناء والعمران، لكنها تتلف جمال الطبيعة فتندثر المروج الخضراء، ويتلف الغطاء النباتي، ويزداد تلوث الهواء والماء، وتتغير أحوال الناس المعيشية والطبيعية، وهذه مشاكل تتواجد بكثرة أينما حلت حياة الحضارة والتمدن العمراني والاقتصادي. وهناك مئات الدراسات تحدثت عن الآثار السلبية والإيجابية لعجلة التطوير الحضاري في عموم المملكة العربية السعودية وكذلك بلدان العالم العربي والعالم بأسره. (ابن جريس)

(٣) الدكتور إسحاق من الأصدقاء الأعزاء ونلتقي به دائماً، لكن هذا اللقاء الآنف ذكره كان في فترة انعقاد معرض الرياض الدولي في الأيام الأولى من شهر جمادى الآخرة عام (١٤٣٧هـ/٢٠١٦م).

(٤) الأرض الممتدة من أبها إلى الباحة هي جزء من بلاد السراة، ومعظم سكانها من قبائل الأزد اليمنية، وهي جديرة بالبحث والدراسة. (ابن جريس)

(٥) حاضرة أبها من المدن التاريخية، وقد خرج عنها بعض الدراسات لكنها مازالت بحاجة إلى دراسات علمية أكاديمية.. (ابن جريس)

معلومات تاريخية حضارية تستحق الدراسة والنشر، ومن ثم قمت على ترتيبها، وتدقيق معلوماتها ومراجعتها، ثم نشرها تحت عنوان (**خواطر وصور أبهاوية**)[١]. وهي على النحو التالي:

ثانياً: خواطر وصور أبهاوية:

١- توطئة:

يجد المرء من جيلنا المرارة عندما يقارن أبها الماضي بأبها اليوم[٢]؛ لا ادعي أنها تجردت من ذلك كله أو أنها فقدت كل هذه الصفات، بل بقي فيها الكثير والكثير وتحسنت أوضاع وازدانت في كثير من الأحوال. كذلك اختفت بعض معاناة الماضي وشدته وظروفه الصعبة، ولكن المرارة التي أعني انحسار الأخضر وتدهور البيئة فيها وطمس ماضيها المتميز المتألق بالتاريخ والحضارة والمكتنز للثروات المحلية الفائقة في الصلاح والنوعية وبخاصة في مجالي الزراعة والمياه، وحينما أكتب عن ماضيها فلا أريد الإساءة لأحد ولا النقمة من أحد إنما هي انطباعات وجدانية تحن لماضيها الجميل بشجن وأسى. اللهم ما حدث من انتهاك للبيئة وتلويث وفساد فهذا جرم لا يسكت عليه بل ينبغي نقده ومعارضته وطرح وجهة النظر في معالجته بإيجابية ووفاء لأبها البهية[٣].

٢- أبها القضية:

عرفت أجزاء من جبال السروات بدءاً من جبال عسير وعاصمتها أبها ومروراً ببلاد بللحمر وبللسمر وبني شهر وبني عمرو وبلقرن وخثعم وشمران وبلاد غامد وزهران وبلحارث وبني مالك وبني سعد حتى الطائف بجناحيها الشفا والهدا[٤]؛ وهي قطعة من جنة الله على الأرض تتنفس شذا الفطرة وتفوح بنكهة الطبيعة لم تلوثها

---

(١) سوف يتضح للقارئ أنها فعلاً خواطر وصور ارتسمت في ذاكرة مدونها، ثم إن معظم هذه المادة عن مدينة أبها وما حولها. (ابن جريس)

(٢) حاضرة أبها جديرة بالبحث والدراسة سياسياً وإدارياً وحضارياً في الماضي والحاضر، ونأمل من طالباتنا وطلابنا في الدراسات العليا أن يدرسوا حواضر جنوبي البلاد السعودية. ومدينة أبها تأتي في مقدمة هذه المراكز الحضارية. (ابن جريس)

(٣) سلبيات المدنية لم تؤثر على حاضرة أبها فقط، وإنما العمارة والتمدن تؤثر سلباً في أي مكان تقوم وتنمو. (ابن جريس)

(٤) وهذا ما عرف ببلاد السراة، وقد أخرجنا عنها العديد من البحوث العلمية عبر عصورها التاريخية الإسلامية. (ابن جريس)

أيدي العابثين ولا صلف المتنفذين، وكنت في الحل والترحال أتوهم مناجاتها لي بشكوى يعتصرني معها الشجن ومشاعر الغبن؛ أن تغتال تلك الطبيعة الوادعة التي عجزت عذوبة غيولها وغدران أوديتها ومياه أبارها وعيونها ومدرجاتها البديعة ومروجها الخضراء أن تقاوم عجلة التنمية وسطوتها القاهرة وصلف التطوير ومزاعمه الملتبسة، مما أودى بجلبابها السماوي المقدس فلم يُحْفَظ له جلالُه ولم تخشَ مهابتُه لكي تستمر صيانته لها بالندى والطل والطهر، ولكي يدوم حجاباً يقيها عيون الحاسدين ودخان الزمن المحترق، بل هُتكَ سترُه واستُبيحتْ حُرْمَتُه ومُزقَ شرَّ ممزق بدعوى الحداثة التي خُدِعَ بها الأهالي، وجنَد لها بعض أبناء المنطقة فكانوا بمثابة الهراوة التي وُهِبتْ لفأس التنمية والتطوير[١].

"كانت الفأس قطعة من حديد، وحدها لا تطيق حزاً وقطعاً، فرأت دوحة: فقالت: (هبيني، يالك الخير! من فروعك فرعاً!)، امنحيني يداً، تشدي بها أزري، فأزداد في البرية نفعاً، فحبتها فرعاً متيناً وظنت أنها أحسنت بذلك صنعاً!، باتت الفأس بعدها ذات حول، يصدع الصخر والجنادل صدعاً، وتناست أنى لها ذلك الحول، فجاءت لدوحة الأمس تسعى!، أن هوت نحوها بقسوة ذي غل، وحقد كأنه حقد أفعى، ضربتها ضربات طالب ثأر، فهوت للثرى: فروعاً وجذعاً!! [٢].

لقد حدث تحول مخيف في نمط الحياة تحولت فيه المنطقة من ثقافة الإنتاج إلى ثقافة الاستهلاك في غضون طفرة التسعينيات، تلك الطفرة التي أسميها (الخروج الثاني)، وما أعني بهذا الاسم، هو أن أفعى الشيطان التي أخرجت أبانا آدم من الجنة، هي تلك التي أخرجتنا من جنة الله على أرضه وضربت بفأسها، بصلف وسفاهة وجهالة مركبة، دوحة الطبيعة تلك. إنَّ ما حدث قاد لتعطيل الموارد الطبيعية من آبار وزروع وإحلال هندسة ذات مرجعية ملتبسة تختلف في منطلقاتها وغاياتها عن الهندسة المحلية التي أشرت إليها آنفا، حتى أفضت تلك الهندسة الملتبسة الدخيلة

---

(١) كلامك يا دكتور إسحاق أدبي مليء بالمحسنات البديعية، وكتابة التاريخ يجب أن تكون محددة في عباراتها ومفرداتها، بل إن الحقائق التاريخية يجب أن تكون بعيدة عن التحليق في عالم الخيال اللغوي. مع أنني أتفق معك أن جمال أبها الطبيعي أصابه الاندثار، واعترته عجلة التمدن العمراني والتنمية الحضارية. (ابن جريس)

(٢) هذا الكلام الأدبي لا يخلو من الحقيقة التي تصور ما جلبته عجلة التنمية في بلاد عسير من سلبيات أثرت على البيئة وما اشتملت عليه من جماليات طبيعية. (ابن جريس)

إلى ممارسة لجرائم بيئية بشعة بشاعة مركبة ينبغي ملاحقتها بالمحاكمة والإدانة والمعاقبة والمعالجة واستنقاذ ما يمكن استنقاذه، وإصلاح ما يمكن إصلاحه، وتنمية ما يقبل التنمية بالتدابير والوسائل والأساليب الناجعة المناسبة الملائمة لطبيعة المنطقة وطبائع أهلها، مع الإفادة من تجارب الأمم والشعوب المتقدمة في الحفاظ على الطبيعة بمكوناتها وعناصرها ومواردها وامتداداتها وبيئتها الذاتية، واستنطاقها وفهمها عن علم، والارتكاز في ذلك كله على إنسانها بتوظيفه في العناية بها والاعتداد بتجربته وعلاقته التاريخية والفطرية بها وبموجوداتها المتنوعة وضرورة المواءمة بين متطلبات حياته المدنية بأساليبها المتطورة المتأثرة بما يفد إليه من خارجها وبين حقائقه وحقائقها الذاتية[١].

وعلى الرغم من كون التخطيط في العقود السابقة جاء بحلول لبعض المشكلات الناجمة عن التجمع ومقتضياته، فإنه للأسف الشديد ارتكب أخطاءً فادحة تضررت منها البيئة ومكوناتها الأساسية (الماء، الهواء، المزارع، والغابات، والآثار....) الخ، وكنتائج مباشرة وغير مباشرة لتلك الأخطاء باتت المنطقة مسرحاً للجرائم البيئة الملفتة لأنظار المراقبين والسياح، وبشكل صارخ، كُتبَ عنها الكثيرُ في الصحف، بيد إن المعالجات دون المستوى المطلوب وأحياناً كثيرة (لا حياة لمن تنادي) [٢]. المشكلة الآن اتجاه الناس للتعمير والاتجار بالملوثات والتطاول في البناء بالكتل الخرسانية الشوهاء، والتباهي بالمخططات الملفقة التي يروج لها بالدجل وأنواع الاحتيال والغش والغبن والسمسرة الماكرة، وفتح الأسواق الكبرى، والمشاريع المستعجلة على حساب الطبيعة الأصل والرقعة الخضراء، بما أثار دهشة العقلاء حتى من الأجانب ويمكن تتبع تلك الكتابات والانتقادات والإفادة منها ما أمكن، واكتفى هنا بذكر موقفين طريفين، هما:

١. يتمثل في موقف سائح فرنسي زار المنطقة والتقط لها صوراً وأفلاماً قبل ما يزيد على خمسين سنة تقريبا، ثم عاد إليها وبرفقته زوجته يبغى يمتعها

---

(١) كلامك يا إسحاق هو عين الحقيقة، وحبذا أن مؤسساتنا والإنسان في أوطاننا يدرك أهمية الطبيعة فيحافظ على جمالها ونظافتها، والمسافر منا إلى بعض بلدان الشرق والغرب يرى الجمع بين الأصالة التاريخية والحضارية وبين المدنية والتطوير، وهذا ما نفقده في مناكب أرضنا، ونفتقده في معارفنا وثقافتنا. (ابن جريس)

(٢) أشكرك يا دكتور إسحاق على هذا الشعور، وحبذا أننا جميعاً مؤسسات وأفراداً نستشعر أهمية البيئة والحفاظ على مكوناتها الطبيعية، ونعمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه في مناطق جنوبي السعودية المعروفة بجمالها الطبيعي. (ابن جريس)

برؤية طبيعة وطبائع بهرتـه بجمالها وحسنها كطبيعة وأسلوب حياة وديع رائع فطري إنساني وكما ذُكِرَ عنه؛ المفاجأة المؤلمة التي أبكت ذلك الفرنسي وقادته للاحتجـاج الصارخ هـو اختفاء وجه تلك الحياة ومعالمهـا واستبدالها بأنماط مـن البنـاء والتخطيط متدني الجـودة لا يلائـم طبيعة المنطقـة، ولا يجانس جغرافيتهـا، بل قضى وبلا هوادة على مكوناتهـا الذاتية وأفسد أسلوب الحياة المميز لها، وأهدر تراثها الحضاري وشخصيتها الأصيلة[١].

٢. سائحة أمريكية حذرت من العبث بمقومات الطبيعة والإضرار بأهالي المنطقة حالـة فُتِـحَ مجـال الاستثمـار لشـركات السياحـة ومشاريع الأسـواق الكبرى والفنـادق الضخمة والتوسع العمراني العشوائي والمخططات السكنية التجارية والاستهـلاك الأهـوج على حساب الغابـات والمزارع والمصـادر المائية والبيئية والهـواء، ودعت لتنمية مستدامة قوامهـا أهالي المنطقة ودعمهم للحفاظ على الطبيعـة وإبرازها بمقوماتهـا وبالشكل الملائم لفطرتها مـن خلال المحافظة على أسلوب حياتهم الذاتي المحلي[٢].

كمـا أن وزارة الزراعـة انتقـدت الاستنـزاف المخيـف لطبيعـة السـودة والمناطق المصاقبـة لها وما لحق بها مـن إجحاف تمثل في تصدع التربـة واتساع رقعة التصحر وانتشـار المباني الخرسانيـة الشوهاء، وأن نظام البلدية السبـب الأساس والرئيسي في هـذه الأضـرار، وذلك حينما أرادت المديريـة للشؤون البلدية والقرويـة أن تحول بعض المدرجـات الزراعيـة لمواقع سياحيـة وملاعب أطفـال ونحو ذلك من المنشـآت المتدنية الجـودة قياساً علـى ما درجت علـى تنفيذه في السابـق. والحقيقـة أن اعتراض وزارة

---

(١) مـا ذكر هذا الفرنسي أدركته أنـا وأنت يا إسحاق ومن في جيلنا، وليس الأمر مقصوراً على أبها، وإنما الذاهـب في أنحـاء تهامـة والسراة يجد دمار الإنسـان امتد إلى كل شيء جميـل في طبيعة هذه البلدان الجنوبيـة. كلنا أدركنا المـروج الخضراء وجداول المياه والطيور بأنواعهـا في محافظات مناطق الباحة، وعسـير، ونجران. وإنني أتذكر تلك المعـالم الطبيعية الجميلة في عموم السروات من الطائف حتى بلاد قحطان ونجران، وعندما ارتاد هذه الأوطان في يومنا الحاضر أشاهد التطاول في البناء، وشق الطرق، والتوسـع في العمـران، وكل تلـك المناظر والأماكـن الطبيعية الجميلـة أصبحت جـرداء بائسة في لونها وشكلها. (ابن جريس)

(٢) ليسـت هـذه السائحـة الأمريكية هي التي نـادت بهذا القول وإنمـا هناك عشرات الحكمـاء والعقلاء والأدبـاء والمؤرخـين والشعراء نادوا وحثـوا جميع المسئولين في الحفاظ على طبيعـة البلاد، والجمع بين التمدن الحضاري والحفاظ على الموروث الطبيعي والتاريخي. (ابن جريس)

الزراعة وجيه جداً، ولكن يبدو أنه لم يوقف الاعتداء، ولم يحد منه، ولن يقدم الحل الأمثل في حالة الأخذ به؛ ذلك أنه يجعلها محميات منفصلة عن إنسانها وطبائع أهلها: إنما الحل الصحيح إعادة الاعتبار لأهل تلك المناطق بتمكينهم من ممتلكاتهم الخاصة والعامة ودعمهم مادياً ومعنوياً بأنجع الوسائل والأساليب المناسبة لطبيعتهم وطبائعهم ليواصلوا العناية بتلك الطبيعة الخلابة بمدرجاتها الأثرية وأشجارها المعمرة وفي مقدمتها أشجار العرعر، كذلك غاباتها ومزروعاتها سيراً على عادتهم القديمة في الزراعة والفلاحة والسقيا والرعي، فذلك هو جوهر المحافظة على رونقها وإنمائها بخبرتهم العامة وأسلوب حياتهم المعهود، بدءاً بمشارف تهلل، والمدرجات الزراعية المنحدرة منه نحو باحة ربيعة، وسائر المنطقة، فلأهل المنطقة عادات يتعاملون بها مع تلك الطبيعة الخلابة التي كانوا جزءاً لا يتجزأ منها، وبهم تنمو وتزدهر وتزداد رونقاً وجمالاً، وفيها يعيشون، ومنها يأكلون ويشربون ويستنشقون الصحة والعافية والحياة المترعة بالروعة والجمال[١].

إن تمكين أهل المنطقة من رعاية مزارعهم ودعمهم بالإعانات والتشجيع المادي والمعنوي سيسهم في ترميم المدرجات، وإعادة إحياء المزارع القديمة، وإنما الغابات والتعامل معها بالقوانين المقررة عند القبائل منذ زمن وهي وثائق مكتوبة تبهر من يطلع عليها من حيث التكامل والتجانس والتوازن والملاءمة بين الطبيعة والطبائع؛ ثقافة ترابط اجتماعي، وتعاون وهندسة قيمية لا كمية، وتناسب بين الإنسان وأرضه في فلاحته وحطبه وبنائه وتنميته، لا كما يحدث الآن من استنزاف واستهلاك وهتك لأهمية الغابة والتراث أو ترك وإهمال[٢]. **وخلاصة القول:** إن الفرصة لازالت مواتية لتصحيح الأخطاء وتلافي تكرارها واستنقاذ ما يمكن استنقاذ، ولكن ذلك لا يتم إلا برؤية وإستراتيجية وعزيمة ونية صالحة تحب الخير للمنطقة وأهلها، وتقدر المصالح

---

(١) يا إسحاق اقتراحات جميلة، ولكن المشكلة أكبر مما تتصور، نحن جميعاً بجميع طبقاتنا وفئاتنا، راع ورعية نحتاج إلى وعي ثقافي تجاه بلادنا وبيئتنا، وهذا للأسف مفقود عند السواد الأعظم منا، ثم حبّ الثراء والمال يعد من الأسباب الرئيسية التي طغت علينا، فأصبحنا أنانيين، لا نفكر إلا في مكاسبنا الشخصية، دون أن تكون نظرتنا عامة وشمولية. (ابن جريس)

(٢) فعلاً من يطلع على وثائق واتفاقيات وعهود وعقود الأوائل يجدها مليئة بالنصوص التاريخية القيمة التي تحفظ للبيئة جمالها وعمرانها، كما أنها تشتمل على الكثير من البنود والعقوبات لمن يتعدى على الطبيعة ويهتك سترها. ومثل هذه الوثائق جديرة بالبحث والدراسة، حبذا أن نرى بعض طالباتنا وطلابنا في أقسام الدراسات العليا يدرسون مثل هذه المصادر التوثيقية ويخرجونها للقراء والباحثين والعامة والخاصة في مجتمعاتنا. (ابن جريس)

العليا، والحفاظ على مكونات السياحة الوطنية، والموازنة بين العام والخاص، والقديم والجديد، والتراث والتطوير والمورث والتنمية، ولعل ما نشر مؤخراً عن اعتزام وزارة الزراعة لدعم زراعة المدرجات الزراعية، وإعادة الاعتبار لطبيعتها السابقة يبعث الأمل من جديد[١].

٢- معالجات:

وفي حديث إذاعي عبر برنامج خمس دقائق مع إذاعة الرياض يوم الجمعة جمادى الآخرة (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، تحدث الدكتور إسحاق في موضوع سماه: **الطبيعة كعنصر من عناصر الجذب السياحي.** فقال: **"يعدُّ عنصرُ الطبيعة بمكوناتها وتضاريسها ومناخاتها من أهم مرتكزات التخطيط للسياحة وصناعتها وتنميتها وتسويقها، ويبدو أن هذا البعد قد غاب بشكل أو آخر فيما سبق؛ ولو أنه أخذ بعين الاعتبار وبقدر ما يستحق من العناية والاهتمام لما افتقدنا الكثير من جماليات الطبيعة التي تشكل الجذب الحقيقي للسياحة، كذلك لو يؤخذ بعين الاعتبار الآن، وفيما يأتي من تخطيط لمشاريع سياحية جديدة؛ لأمكن الحفاظ على كثير من مقومات الطبيعة الخلابة، المتمثلة في الغابات الخضراء الكثيفة، والمزارع الواسعة المتصلة في جمال أخاذ ومناظر طبيعية مبهجة، تشكل في مجموعها أروع ما يتطلع إليه السائح من زيادة لبيئة مختلفة عما اعتاد. وعلى سبيل المثال فإن المدرجات الزراعية على طريق الطائف أبها وما يشابهها في مناطق أخرى تحتضن الجزء الأكبر من جبال السروات وتمتد بامتدادها، وما يتصل بها من البساتين والرياض المنتشرة على ضفاف أودية عديدة في تقابل منسق وتجاور حميم يتعرج بتعرجات الأودية ويتلوى معها ابتداءً من مصباتها في جبال السروات وانتهاءً بالسهول المتجهة بتدرج نحو النجود والصحاري وتلك المنحدرة بشدة نحو تهامة والسهول الساحلية إلى البحر. ويالها من لوحة بديعة يصعب أن يحيط بها إطار حينما يشاهدها السائح من نافذة الطائرة وهي في حالة إقلاعها أو هبوطها، ويتمنى أن يدوم لهذه الطبيعة الخلابة الرواء والأخضرار**

---

(١) ذكرت في مدونتك المدرجات الزراعية، ويجب أن تعلم أن هذا النمط العمراني عرف عند العرب منذ آلاف السنين ومن يتجول في بلاد اليمن أو أجزاء تهامة والسراة فإنه يرى الكثير من المدرجات التي يعود تاريخها إلى مئات السنين، ومن المؤسف أنك تراها اليوم قد اندثرت، بل امتدت يد الإنسان إلى الكثير منها فأزالها من أماكنها وأحياناً استبدلها بأسوار وجدر من البلك والخرسانة أو الحجارة والخرسانة، وقضى على عراقتها وأصالتها التاريخية الحضارية. (ابن جريس)

والصفاء، وأن تمتد إليها يد الإنسان لزيادة النماء للحياة الفطرية وسيادة الطابع البيئي المحلي، وكم يتألم السائح حينما يشاهد انتشار الكتل الخرسانية بعشوائية وارتجال، وما تجرُ معها من ملوثات ومشوهات متنوعة تنهش في جماليات المناطق السياحية، وتفسدُ عناصر البيئة فيها، وتقوم على أنقاضها.

صحيح أن أسباباً عدَّة عملت على تقليص الطبيعة المعهودة في كثير من المناطق السياحية في جبال السروات لعل من أهمها الجفاف العام الناتج عن قلة الأمطار، وزيادة العوادم وكثافة الحركة والنشاطات المختلفة، لمجتمعات كادت أن تهجر كثيراً من أنماط حياتها القديمة وأساليبها وانفتحت على الحياة الجديدة بكل زخمها ومعطياتها، وبخاصة في مجال التعمير، وصاحب هذا التحول ملوثات متنوعة ومتفاوتة في خطورة أضرارها، وإمكانية معالجتها، والتغلب على آثارها ومع ذلك تبقى مساحة، لعلها الأهم، وينبغي أن تكون الأهم لمنطلقات السياحة وأهدافها وغاياتها بل ربما تسهم فكرة صناعة السياحة بمزيد العناية بالطبيعة والمحافظة على مشمولاتها الفطرية ومناراتها ومعالمها التاريخية وموروثاتها، وتسهم كذلك في تنمية الحياة الفطرية باستحداث التدابير الكفيلة بذلك لأن الطبيعة الفطرية وقيمها الجمالية، هي أهم عناصر الجذب السياحي، وهي بذلك رأس المال والربح من منظور المصلحة العامة، وبمنظور تحمل المسئولية والأمانة في المحافظة عليها عبر الأجيال المتعاقبة.

إن التدخل بأسلوب حضاري شفاف من الأبجديات والبديهيات في التعامل مع طبيعة المواقع السياحية للمحافظة على جمالياتها وإبرازها وصيانة قيمها وتحديد أسلوب التعامل معها وتقنينه، وتوسيع دائرة المحميات لضمان سيادة الطابع المحلي والجغرافي في كل منطقة سياحية لتظهر نكهتها الخاصة وخصوصيتها عن غيرها كأهم عنصر للجذب السياحي إليها، ولا سيما أننا في عصر مليء بالنماذج الحية لدى من سبقنا في مضمار السياحة وصناعتها واستثمارها سواء في البلدان الغربية المتقدمة أو في غيرها من البلدان الأخرى التي تعتني بالسياحة واستثمارها، حيث أعطوا الطبيعة ما تستحق من العناية والرعاية والاهتمام وأبقوا على طابعها ليكون هو السائد. ويكفي للمثال على ذلك أن بعض المشاريع الحيوية المهمة، في بلد كسويسرا، يتوقف لئلا تقتلع شجرة من مكانها أو يهدم مبنى قديم ونحوه إلا في أضيق نطاق وبعد دراسات مستفيضة من لدن مختصين، ولاهتمامهم بالطبيعة وبيئاتها المتنوعة تشكلت لجان وهيئات لحمايتها والمحافظة عليها بل والدفاع عن قضاياها، لذلك نجد السائح

في تلك البلدان يشعر بالغبطة والحبور ويغمر الانشراح روحه وفكره وهو يقضي أجمل الأوقات في أحضان الطبيعة الوادعة بنقائها وصفائها وألقها ورحابتها وتنوعاتها الثرة؛ دون أن يراوده هاجس الخوف من أن يفقد في يوم من الأيام هذه الطبيعة الخلابة أو أي عنصر من عناصرها.

ولا غرابة في ذلك فالطبيعة البكر وما تشتمل عليه من غابات وجبال، وصخور ومرتفعات، وسهول وأودية، وسواحل وضفاف أنهار، ومزارع وبحيرات، وما يتشكل حولها من أنماط الحياة، وأساليب العيش والعمل، والموروثات الثقافية، والمعالم التاريخية ونحو ذلك من صنوف الحياة والأحياء، في طابعها الخاص وهويتها المتميزة؛ هو في الواقع العنصر الأهم في الجذب السياحي. ومما يثلج الصدر ويبهج الروح أن الحس بهذا العنصر الأهم في الجذب السياحي ملموس لدى المسؤولين والقائمين على السياحة في وطننا الغالي؛ ولا أدل على ذلك من تأسيس الهيئة العليا للسياحة وكذلك الهيئات والبرامج والخطط المتنوعة والمتكاملة لحماية الحياة الفطرية وتنميتها برعاية ومتابعة المسؤولين.

مما يزيد شجني وحزني عجزي عن الدفاع عن تلك الطبيعة ونقد مجريات التعامل معها من حيث سوء التخطيط وسوء التنفيذ وسوء الاستعمال وتدني مستوى الجودة في ذلك كله وفي الذوق العام والمظهر العام وحتى أسلوب التعامل الذي ناله التذبذب ما بين التمسك بالعادات والتقاليد والأعراف القديمة بأصالتها وأرومتها وفاعليتها الخيرة وبين التورط في النمط الاستهلاكي الشرس وما نجم عن ذلك من فراغات نفسية واجتماعية وتخلخل في العلاقات. بيد إنني عبرت عن مشاعري بجهد المقل وبشعور الغبن والحنين في خواطر عدة أسميتها: (خواطر أبهاوية) وهي انطباعات وخواطر كتبتها في أوقات متفرقة ومتباعدة وفي حالات انفعال ومشاعر إحباط قد تظهر بين سطورها مشاعر الغبن والشجن نتيجة ما أصاب البيئة من أضرار وما حل بالطبيعة من استنزاف لم يكن بوسعي سوى السفر في طيات الماضي وتقليب دفتر الأيام فكانت هذه الخواطر بحلوها ومرها ومهما يكن فإنها تبقى انطباعات فردية نسبية لها مسوغاتها وفلسفتها الخاصة[1].

---

(١) يا دكتور إسحاق إن اللسان يعجز والقلم يتحير عن ما أصاب طبيعة بلادنا من دمار وخراب بفعل الإنسان. ومن يذهب إلى بعض بلدان أوروبا أو الشرق فإن الحسرة والألم يزداد في النفس، وذلك لتدهور الغطاء النباتي في أوطاننا، والقضاء على موروثنا التاريخي، في حين أن هذه البلاد الشرقية والغربية تحافظ على الاثنين. (ابن جريس)

٤- شفت أبها :

أتذكر ذات عشية دخلت أبها في جيب فلفو موديل (٦٦) مع الوالد ماطر بن إبراهيم الألمعي أبو الكاتب المعروف إبراهيم ماطر[١]، دخلنا من طريق يتلوى وتسير فيه السيارة بصعوبة بين مروج زراعية وبساتين وقصور تجري من تحتها السواقي وتمتلئ بأشجار السرو والأثل واليراع، ومن خلفها تتراءى لنا أشجار الفواكه المتنوعة والثمار والخضروات في منطقة تسمى البصرة، ثم مررنا ببستان عرفت فيما بعد بأنه يسمى (بستان برغش)، ثم صعدنا بعده لحي شمسان الذي تتسنم قمته القلعة الأثرية المسماة قلعة شمسان، وكانت تبدو لنا من بعيد كسنام البعير، ثم توقفنا في سفح الجبل عند محطة بترول تسمى محطة ابن صالح التي تتصدر مدخل أبها من الناحية الشمالية وتحتل موقعاً بارزاً، وكانت معلماً يلفت النظر بشيش البنزين والديزل والقاز ولمبات الكهرباء المعلقة على خشب أو زوايا حديدية مبسطة جداً، لكنها تعد من طلائع التحديث والإبهار، حينما تضيء في المساء بألوانها الصفراء والخضراء والحمراء وكنت أتمنى المرور بها ليلاً للتمتع بمنظر تلك الإضاءة المبهرة.

بعد أن تزودنا منها بالوقود واصلنا السير لدخول وسط أبها؛ ما أذكره من ذلك الدخول أن الطريق انحدر بنا يسار تلك المحطة وعن يسار الطريق ويمينه سفوح جبلية فيها مقابر كثر بخاصة الجهة اليمنى ومسايل لمزارع وبساتين سرعان ما أفضى بنا إليها الطريق لنواصل السير وسط مروج خضراء تخلب اللب وتبهر النظر عبر طريق لا يتسع إلا لسيارة واحدة تمر من خلاله، وهو ممر يفصل بين المزارع للمارة، وفائض السيول ربما وسع قليلاً ليتسع للسيارة، إذ العادة أن السبل والطرقات تشق بين المزارع بعرض ملائم لوسائل النقل القديمة من الدواب والرواحل، ويبدو أنه وسِّعَ منذ زمن قديم لأن الجدران وحيطان المزارع يظهر عليها القدم؛ تكاد النباتات تخفيها وتشتبك بالأشجار والنباتات الطبيعية ذات الكثافة الفائقة، المهم أن الطريق على الرغم من تلك التوسعة لا يسمح بالمرور حال تقابلت سيارتان فتجد إحداهما تقف في أقرب متسع يفضي إليه السبيل بعد مسافة تطول أو تقصر[٢].

---

(١) وذلك في الثمانينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م). (ابن جريس)

(٢) هذه مدينة أبها في الماضي، واليوم ظهرت فيها العمائر العالية وشقت فيها الطرق وتعددت فيها الأسواق، ولا ترى فيها إلا زروعاً قليلة ومحدودة وبخاصة في وادي أبها الذي مازال يشتمل على قليل من المروج الخضراء. (ابن جريس)

استمر بنا الطريق في نزول تدريجي ومنعطفات مبهرة تطل عليها من علو بساتين حي القابل غرب الطريق، وحي لبنان شرقه، وكأن سيارتنا بين تلك البساتين هودجاً أو رجلاً يسير ببطء حتى نزلنا الوادي فقطعناه بحذرٍ شديد وخوف إذ يسيل بغيل هادر. اتجه بنا الطريق لطلعة مستندة بشدة ومما زاد في صعوبتها ما تسحبه السيارة من ماء الغيل الذي يسبب لها الانزلاق، وكون الطلعة مرتكزة إلى حد ما ؛ وتسمى (الرفصة)، وربما كان جزء منها مطبطباً بالإسمنت إن لم أكن واهماً. المهم طلعت سيارتنا بالدبل تلافياً للانزلاق، وبطلوعها البطيء الثقيل أشرفنا على بسطة البديع بنمطها المعماري البديع فعلاً؛ تتقابل على فنائها الفسيح المبهج البيوت بإطلالات تنم عن جمال فطري في الطبيعة والمجتمع؛ مباني ذات نسق متجانس مع البيئة الزراعية المترعة بالرواء والطابع المدني المتحضر. تتكون تلك البيوت من الحجر والطين يطرزها الرقف تخلل سطوره النوافذ الملونة النابضة بالحياة المترفة الناعمة، وتعلوا المنازل شرفات وتحزيمات في قمة الأناقة معظمها مجصص بالجص الفاقع البياض، وبعضها تداخله الزرقة، فتبدو في أجمل صورة، ويلحظ أنَّ الأدوار الأرضية في بعض المباني عدلت لتكون دكاكين، أو زيدت أمامها مظلات لعرض مختلف البضائع والسلع، وفي الجانب الشرقي من البسطة معلمٌ بارز تشتعل فيه النيران وتفوح منه رائحة الخبز (التميس)، أظنه الفرن الوحيد في أبها حينذاك، توقد فيه النار بالحطب، ويا ليت إنني أعرف أو يتكرم من يعرف ترتيب تلك المنازل بدءاً بالشاخص منها على يمين الداخل من هذا المدخل الشمالي الشرقي للحي كي تتضح الصورة أكثر فأكثر وللتذكير كذلك بأهلها"[1].

ويضيف الأستاذ إسحاق قائلاً: "**هناك طريق أو أكثر تصب في البسطة من الجنوب قادمة من حي مناظر لا أتذكرها بالضبط، وإنما أتذكر البوابة الغربية الجنوبية التي تطلع على محلات الحناوي للفاكهة ومسجد برزان، وعلى اليمين منها واليسار دكاكين ومحلات عرفت فيما بعد أنها محلات البشري لمواد البناء، تليه محلات آل بن ردة وهم تجار من بلجرشي مشهورين في أبها حينذاك. يقابل هذه الدكاكين والمحلات مدخل مسجد برزان، وعن يسار مدخله دكاكين عدة فيها خياطون، وعلى اليمين مدخل سوق الثلاثاء، وإلى قبلته مدخل حي الربوع وحي**

(١) أحسنت يا دكتور إسحاق على هذا الوصف الجميل، وحبذ أن رجالات أبها الأوائل، ومن هو على قيد الحياة الآن أن يضيفوا بعض التفصيلات إلى ما كتبت، وذلك كي تتضح لنا صورة أبها التاريخية قديماً. (ابن جريس)

نعمان. وأذكر أننا دخلنا جهة اليسار بمحاذاة مباني جميلة ذات إطلالة على ساحة يقوم فيها مبنى حديث وفي الغرب منها مباني تجارية، ومن بداية الطريق المحاذية لمسجد برزان تضيق الطريق ثم تتسع، لتفضي لتلك الساحة، أظن أنها في ذلك الحين سوق الأعلاف، وتوجد في وسطها تقريباً بقايا قلعة أو قصبة، وفي الناصية الشرقية بيوت أسمعهم يقولون بيوت سعد البركة بينها وبين المباني الأخرى ممر يصل لمنزل كان يسكنه ظافر العبيدي (أبو علي). أما الطريق الذي سلكناه بعد الساحة فقد اتجه بنا في انحدار لوادٍ صغير ثم يتجه الطريق بطلوع للجنوب الشرقي ليدخلنا حي النصب. ثم سار بنا الطريق وكله ترابي وضيق جداً للنمصاء بجوار منزل مهرة العبيدية المطببة الشعبية (ذات العلاج بالكي)، ثم علقنا بالإسفلت عند محطة مبارك العبيدي، متجهين لطريق الخميس، حينها أظلم الليل، ولا توجد مصابيح كهرباء على الطريق إلا ما نراه من بعيد في مستشفى أبها غرب المدينة. ويتوسط حي الربوع طريق تصطف على جانبيه البيوت، ثم تليها المزارع فتحاذيه ذات اليمين وذات الشمال وصولاً لكبري الدولة الذي يجسر الطريق بين حي الربوع وحي القابل، ومن تحت الكبري يمر وادي أبها في منعطف ينحني به لناحية الشرق، بعد أن كان في امتداد طول من الجنوب للشمال، أما الشارع فيستمر ليصب في بسطة القابل، وقبل أن يصلها بمسافة قصيرة يتفرع عنه طريق يتجه للغرب، أما أعلى الطريق القادمة من سوق الثلاثاء فيتفرع منها طريق جهة اليسار لتصعد حي نعمان، وتتفرع منه طرقات للقدم إحداها شمالية غربية تخدم عدداً من بيوت الحي، والأخرى جنوبية غربية تصل إلى الجامع، وساحة البحار، والوادي وسوق الثلاثاء من أعلاه"[1].

٥- خاطرة أبها الطفولة : بين الواقع والخيال:

أ- الطفولة و الواقع :

يمكن النظر لفترة طفولتي وجيلي في منطقة الجنوب من منظورين مختلفين لحد المفارقة والتناقض فبرغم ما وصل إليه العالم من حولنا على الأقل في مصر ولبنان والشام من تطور وتقدم من مظاهر الكهرباء ووسائل الاتصال الحديثة؛ التلفون

(١) حبذا يا دكتور إسحاق أن تتوسع في مدونتك هذه وتخرج لنا دراسة تفصيلية عن التركيبة السكانية والبشرية والعمرانية لمدينة أبها وما حولها، وإن فعلت فسوف تسدي لنا معروفاً، وتطلع أبناءنا وأحفادنا على موروث حضاري عاشه الآباء والأجداد في هذه البلدة التاريخية الحضارية. (ابن جريس)

والراديو، والتلفزيون، والسيارات، والمباني الحديثة، والأسواق والمنشآت والحدائق العامة والمسارح والسينما والحفلات الغنائية، إلا أننا عشنا في أبها في العقود المتأخرة من القرن (١٤هـ/٢٠م)، نستضيء بالنجم والقمر، ونفترش جلود البقر، ومنسوجات الطفي، والمصوغات الفخارية، ونلتحف فراء الضأن، ونعجب ممن يشرب الشاي، ونتداوى بطبخة الأرز، أو الكي بالنار، ونوقد الجذوة باحتكاك مروتين، ولا يوجد في بيئتنا المحيطة كما أزعم قطعة من حديد أو قبضة من أسمنت، كل ما في البيئة موجوداتها الذاتية، وبشح شديد، وحتى التعامل التجاري بين الناس كان المقايضة بالحبوب والتمور والألبان والسَّمن والعسل والفواكه المحلية، أو بعرق الجبين، أو باحتراف مهنة ما[١]. لا يأتي شيء من خارج القرية، أو الحي، أو في غير الموسم، والتوقيت بالطوالع والأنواء، ومع هذه المعاناة كان للحياة لذة وطعم، ولكل جديد قيمة واحتفالية. فأذكر زمن الأتريك، وفرحة ليالي عيد الأضحى، والعزومات الليلية حين تشع أضواء الإتريك من نوافذ بيت العزومة، وقد يكون المنزل الوحيد الذي تشع أضواؤه لتأخذ مداها في حقول القرية وأفنيتها كأشعة ليزر الدعايات في المدينة هذه الأيام، أذكر الراديو حينما وصل القرية، واحتفل به أهلها، وكانوا يتحلقون حوله وقت الظهيرة والسهرة على الرغم من ضعف الإرسال. كان الراديو في حد ذاته تحفة التحف بإطاره الخشبي الصقيل وأزرته العاجية الباذخة وأسلاك سماعاته الذهبية الفارهة، ولن أنسى العناية من أهله بلفه بالحرير وتزويقه بالكلف والزري[٢]. وشاهدت أيضاً البكم وكان معجزة العصر بعد معجزة الراديو الذي طالما دارت التساؤلات عمن بداخله من مخلوقات وإلغازات وأسرار دمجت العلم بالسحر والعلم بالإيمان والجن بالأنس، المهم أن البكم أحدث تحولاً وكون نمطاً في أساليب التجمع والترفيه، فكان جمهور القرية يجتمعون وقت الظهيرة والسهرة في منزل صاحب البكم.

والبكم من حيث جودة الصناعة وجمال الديكور كالراديو، بل أجمل، لكونه داخل شنطة خشبية، ويسمى شنطة لكونه داخلها، والأعجب طريقة تشغيله، وشكل

---

(١) هكذا كانت حياة الناس، فهم جميعاً في شح وفاقة، ولا يخلو ذلك المجتمع من المقتدرين مادياً، فأحوالهم المعيشية حسنة، لكنهم كانوا نسبة قليلة في المجتمع. (ابن جريس)

(٢) لقد شاهدت مثل هذه الصور الحضارية في بلدة النماص في نهاية الثمانينيات و أوائل التسعينيات. وشاهدت ذلك أيضاً عند بعض الأسر في أبها في النصف الثاني من العقد التاسع في القرن الهجري الماضي. (ابن جريس)

الأسطوانات وحركتها أثناء الغناء، تدور وكأن العزف والموسيقى والغناء تيارٌ كهربائي يهز أوتار القلوب بالسحر الحلال، ومن براءة القرويين ربط ما يسمعون من كلمات الغناء والألحان والموسيقى بجمال الكون والذكر وقضايا الدنيا والآخرة، أتذكر مطوع القرية وهو يسمع ودموعه تبلل شعر لحيته الكثة البيضاء ووجنته المضيئة بالتقى والإيمان، وهو يردد سبحان الله، لا إله إلا الله، الله أكبر[١].

ب - الطفولة والخيال :

كنا ونحن صغاراً لا نعرف ما يسمونه اليوم (فوازيرا). لكننا نركض خلف الفراش نستروح العبيرا نترنم مع الطير في تغريدها ونردد اللحونا. فوق الغصون وتحت الغيوم وعلى ضفاف الغيول. سماؤنا صافية والغدران تنتظم وادينا. حقولنا سندسية باكرها الحيا، وتهب في شعابها النسيما. صحيح أن بيوتنا أكواخ، وأننا لا نعرف الوراقينا. وليس لنا في أسواق النخاسة مكان، ولا نعرف إليها الطريقا. ما ضرنا وقد عرفنا اليوم مراباة البنوك ووحشة القصور ووباء التقدم اللعين. إننا ونحن صغار نرعى البهم، نرضع من أهلنا والناس طهر الضمير. نقاء السريرة، قيمة الخلق الرفيع. لم نكن أبدا نرى ما خلف السديم، وما يحمله غدنا القريب، لنعرف اليوم الواقع المرير. كان بزوغ الشمس يضحك من أقدامنا تنتعل الطل، يعفرها الثرى وندى الطريق. وذاقت من برده الشيء الكثير، وشكونا قشعريرة الصبح لشعاعها، ودفئها الحنون. بعد ذا نلاحق الظل كلما جدت الشمس في لظاها، وهي تستفز منا لصبحها الحنين. أما الأصيل، فحدث بما شئت عن الأصيل. الشمس في أفقها حلوى تذوب في شفة الغروب، والليل يزحف فوق قريتنا ستراً وجلالاً وهدوءً. كم من القلوب تخفق شوقاً بذاك الليل، وكم واجفات من جلاله والسكون[٢].

---

(١) بلاد عسير بل عموم مناطق جنوب المملكة العربية السعودية عرفت الكثير من الفنون والصور الحضارية المختلفة خلال القرون الماضية المتأخرة. وما ذكر صاحب هذه المدونة ليست إلا نموذجاً صغيراً من حياة وفنون وآداب الناس، يا حبذا أن نرى من طلابنا في برامج الدراسات العليا من يدرس هذه الجوانب العلمية والمعرفية. (ابن جريس)

(٢) من يستقرئ هذه المقطوعات الأدبية يجدها تحاكي وترصد صوراً من التاريخ الحضاري الذي عاشه الآباء والأجداد.. ونأمل من الباحثين وطلاب العلم أن يضاعفوا جهودهم في تدوين تاريخ وحضارة هذه البلدان الجنوبية، وليست مدينة أبها إلاّ جزءاً يسيراً من حياة أرض وسكان هذه الأوطان ذات التاريخ القديم الذي يعود للوراء مئات السنين. (ابن جريس)

٦- خاطرة أبها الطبيعة والطبائع :

كلما تذكرتها تذكـرت أيامها البهية، مدارج الصبا فيها وفيها الصداقات الوفية، مـن ذرا نهـران إلى وادي نعمان، ومـن قلعة شمسان إلى روابي جوحـان، كانت جولاتنا البرية، فطوراً نقطف وردا من حقولها الندية، وطورا نعرش في بساتينها الفواكه الشهية، نطـارد البلابـل ونقلد ألحانها الشجية، كم من زمالة كانـت مواعيدها الغدران النقية، ودراسـة ترهبنـا بأساليبهـا، بمدرسيها، بمواقيتهـا، بصفوفها، بمقاعدهـا الخشبية، بطابور الصباح في باحتها، بمهابة التفتيش، وبالنظامية، بصفارات البدايات والنهايات وألعابهـا الرياضية. قصص ليس ينتهي الحديث عنهـا - يا صاحبي -، آه، على زمالاتنا كانـت جـد وفيه، ليت شعري يفي بمنظومة الجمال فيهـا، بوصفها، برسمها، بنكهتها القرويـة، اتذكـر الماء القـراح ينضح في وديانهـا، في هاتيك البطـاح الزمردية، اتذكر شميـم العرعر يلطف أجواءها كلما هبـت الغربية، اتذكر في السطوح شاهي العصرية، اتذكـر الصباحات مبللة بالطل بالأنداء الطرية، اتذكـر الشيح على ضفاف الجداول، وشذا السذاب يعطرهـا صحا وعشيه، اتذكر زروعا طرزت حيطانها شجيرات العثرب كالمزهرية، في الغـداة نقضم غرانيقها، وعند الانصراف ساعة الظهرية، اتذكر الشث والطبـاق والريحـان، أتشم مثلي في صحائـف الذكريات عبير الزهـور الزكيه، أتذكر نظافـة تشع في الطرقات بفطـرة الأشياء السويـة، اتذكر أحاديـث الطيبين ونفوسهم السخيـة، اتذكر عزوماتهم، اتذكـر أعيادهم، اتذكر تراحيبهـم، اتذكر استقبالاتهم القبليـة، اتذكر أغنامهم كالـبرد إذا غشت السفوح، اتذكر المدرجـات العثريه، اتذكر قرى النعمان، اتذكر أبارها، اتذكر سدودها، اتذكر السواني، اتذكر السنابل الذهبية، اتذكر شجيرات العرفج في قفارها، في باحات حصونها الأثرية، اتذكر زمن الإتريك!!، ولياليهـا القمرية، اتذكر خطـوط الفوانيس، كالنجوم على صفحة الليل، تربط قراها يصخب السمر، ليالي رمضان وليالي عيد الضحية[1].

---

(١) يـا إسحـاق كل ما ذكرت شاهدناه في قرانا وبلداتنا الريفية، وأرجو أن تسهب في رصد ذلك التاريخ في مدونات مطولة توضح فيها كيف كان يعيش الناس في مأكلهم ومشاربهم ولباسهم وزينتهم، وكيف كانت أفراحهـم وأتراحهم، وكيف عاشـوا حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافيـة، وكيف كانت صلاتهم بعضهـم مـع بعض أو مع جيرانهم من القـرى والبلدات الأخرى. إن التاريخ الحضـاري في حاضرة أبها وغيرهـا من مدن وقرى جنوبي البلاد السعودية مازالـت بحاجة إلى دراسات عميقة ترصد وتوثق حياة الأوائـل، ونأمل أن نرى من الأقسام العلمية الأكاديميـة في جامعات الجنوب السعودي من يهتم بدراسة أوضاع أرض وسكان هذه البلاد العربية السعودية. (ابن جريس)

٧. خاطرة أبها شكوى وحنين:

عن أبها أكتب للذكرى، ولكن أين أكتبها..؟، ولمن يا ترى أحكيها..؟!، وبكل التفاصيل أرويها، هل يصدقني من أسرد له قصة حبي وما فيها، من الأحزان والجراح التي عجزت أن أداويها، لمن. ترى. أبوح لمن. ترى. أناجي!، السرد يطول ويطول، مهما اختصرت القول، يبقى من القصة أحلى ما كان فيها..!!، هل أحدث من يجاملني فيسمعها، عن القرى ومن كان بالأمس فيها، أم عن النصب وقد أقفرت الدَّار، وشط المزار بأهاليها، يا تراهم، ظنوا غريباً يوماً سيرثيها، وبقايا الأمس، تحكي أمجاد ماضيها، أين العيون الناضحات، وغواشي الكرم في واديها، أين التين تشقق صلاحا، أين التفاح كالمرايا، أين الرمان كشفاه العذارى، أين الخوخ والمشمش والبخارى، أين اللوز طاب زهراً وأينع ثمارا، أين الجوز فاح عطراً واخضرارا، أين الزمان؟!، أين المكان؟!، أين القاطنينا؟!، حتى الآكام والجبال الشم دكت، أو نيل من عواليها، وأسراب الطيور الزاهيات، هاجرت هربا، استشعرت بفطرتها تسمما وتلويثا، وحمام الأيك انقرضت!!، وبات البغاث نسراً يعب من مجاريها، في أي جهة أخذت وجهتي، افتش عن الماضي، وعن شذاه في مغانيها، أطرقت منبهتا مما جرى، الأسى يلفني، يطوي صفحة الماضي ومعانيها، وقفت ببعض الأحياء أسائلها، الخشع وإطلالة الحب من نوافذها، النمصاء وذكرى الطفولة فيها، لبنان والشرفات عل واديها، شمسان وجيرة كانت لنا فيها، القابل وقد انفض السامر عن بسطتها، الصفيح وصدى الصوت في نواحيها، ليس إلا المقابر باهتة، ليس الرفات ينطق بما جرى فيها!!؟[1].

٨- صورة تاريخية أخرى:

يرصد صاحب هذه المدونة بعض الصور التي شاهدها وعاشها، وعندما تذكرها حركة شجونه فكتبها بأسلوب سردي جميل. مع أنها لا تخلو من النقص، لكنها توضح بعض اللمحات الحضارية التي عاشها الأجداد في أبها خلال النصف الثاني من القرن (١٤هـ/ ٢٠م).

---

(١) ذكر هذه الأحياء الأبهاوية شيء جميل، لكن مازلنا نتطلع إلى معرفة الأسر الساكنة فيها، وكيف كانت حياتهم ومعيشتهم في هذه الفترة الزمنية التي يتحدث فيها صاحب هذه المدونات. ونأمل منك يا دكتور إسحاق أنت ومن عاش في هذه الأماكن الأبهاوية أن تفصلوا لنا الحديث عن تاريخ وحياة الناس في هذه المواضع الأبهاوية العسيرية. كما أن تاريخ بلاد الجنوب خلال القرن (١٤هـ/ ٢٠م) مازال بحاجة إلى من يدونه، ومصادر تاريخ هذه البلاد في تلك الفترة ميسر لأنه مازال بين ظهرانينا من الرواة والأعلام من يستطيع أن يسرد حياة سكان هذه الأوطان، ونأمل أن نرى من طلابنا أو بعض الباحثين من يفعل ذلك. (ابن جريس)

أ- الصورة الأولى:

مازالت هناك صورة، عالقة بمخيلتي، وأتذكر زمانها وأجواءها ومحيطها، وطبيعة المجتمع آنذاك، ذلك هو موقف سيارات الأجرة التي تنقل الركاب من أبها لخميس مشيط، وعلى الطريق بينهما كانت تسمى (محطة التكاسي)، ثم سميت محطة (البواجي)، وبعضهم يسميها ماقفة؛ أعقبت هذه المرحلة مرحلة التكاسي، حين كانت من سيارات فورد، أتذكر منها موديلات (٦٤و ٦٥و٦٦)، ومنها تكس عليان البشري، الذي كان يسميه (**موتر الشباب شايب ما يشال**)، وأتذكر أحاديث الناس، حينذاك، في مجالسهم وملتقياتهم تدور بفكاهة عن سرعة هذا السائق وشهرة تكسه لدرجة أنهم يحكون أن المرور كتب لوحات على الطريق (**هدي السرعة يا عليان**)، أو كتبها بعض الناس بلسان المرور. كانت أجرة الراكب من أبها إلى خميس مشيط ريالاً واحداً، ثم ارتفعت إلى ريالين.

أتذكر أنه بدأ العمران الجديد في أبها بتدرج، وبدأت تظهر عمارات حديثة ذات طراز جميل، ومنها مبنى البلدية، والشارع العام المسفلت من محطة مبارك العبيدي إلى وسط البلد، وزرعت أشجار الزينة وسيجت بشبوك ذات أشكال شبه هرمية مصبوغة باللون الأخضر، ولها أبواب جانبية لغرض تخديم الشجر وتسميدها وسقياها، وغرست أشجار الزينة وهي من أشجار السرو والكينة وأظنها مستوردة من خارج المنطقة بل من خارج المملكة، وغرست أعمدة الكهرباء للإنارة. والرصيف الذي مازالت صورته ماثلة في المخيلة بأعمدة الإضاءة وأشجار الزينة، وهو الجزء الممتد، كجزيرة للشارع العام، من دوار مبنى الإمارة في مبناها القديم (عمارة آل عايض) إلى دوار الطبجية، وهذه الوصلة أتذكرها قبل عمل الدوارين، وكانت هذه الجزيرة بين المسارين مرصوفة بخرسانة ومبلطة بالبلاط الأحمر الفخاري، وكانت (محطة التكاسي) مسفلته ومحفوفة بعدد من الأشجار ترتص بينها سيارات الأجرة لتدخل في سرا تحميل الركاب ونقلهم من أبها إلى الخميس، وكانت تعداد السيارات لا تصل العشرة. ومازلت أذكر منظر مبنى القصر القديم بمهابته وضخامته، ومنظر المبنى الجديد المبهر حينذاك بفنائه الحديث ومدخله وكونه مخصصاً للقسم الهندسي والتخطيط فيما أذكر. أن لذة الذهاب لمدينة أبها أو الخميس مازالت معششة في سويداء القلب عندما نتجه للمحطة (الماقفة) ونجد سيارة الأجرة. ومنذ يتحرك التكسي ليغادر المحطة حتى يدخل مدينة خميس مشيط، ولا غرو فالطريق إلى الخميس نزولاً أو إلى أبها طلوعاً

تعد رحلة ممتعة تستغرق ما يزيد على الساعة تمر بشعاب وأودية ومزارع وبيوت وجبال وقرى متناثرة على جانبي الطريق، وطرق فرعية تتصل بها، وتمر عبرها لقرىً أخرى، وعلى الرغم من أن تلك القرى والطرق لم تأخذ القسط الكافي من التطوير والتحديث، إلا أنها كانت تكتنز قيماً جمالية طبيعية يصعب وصفها من حيث التوزيع المحكوم بالأعراف والعادات والتقاليد المحلية، والتناسق والترابط والتناسب الذي يعكس طبيعة المجتمع الذاتية، وتفاعلهم مع الطبيعة بانسجام وتوازن وترشيد في استثمار الإنسان للأرض، بل كانت طبيعة الإنسان معقولة وجميلة ففيها نسق ذاتي وتجانس طبيعي[1].

ب - الصورة الثانية:

بعد السماع لبرنامج إذاعي بعنوان (**الأرض الطيبة**)، ثم وصلت صورة فوتوغرافية يظهر فيها راديو قديم، عندئذ تواردت إلى ذهني بعض الصور التاريخية التي شاهدتها وعرفتها في حاضرة أبها أيام العيش فيها في الثمانينات والتسعينيات من القرن الهجري الماضي (١٤هـ/ ٢٠م). ومن تلك الصور: شخصية مزارع جاد، شمر عن ساعديه يحتزم (بالسبتة أو الكمر أو القايش)، غداة راح لفلاحة بستانه مع بواكير الصباح، ومذياعه الذي اتخذ له مشجباً من غصون شجر يبث برامجه المتنوعة ويربطه بالعالم كله وينقل له عبر الأثير (**برنامج الأرض الطيبة**)، يحفزه على العمل، ويتغنى بجهده، ويشيد بنشاطه في منظومة المجتمع من حوله، تذكرت صباحات المزرعة وأشجارها وسواقيها وأدواتها الزراعية من (مسحاة ومخراش وزنابيل ومحشات). تذكرت جريان الماء في السواقي الوادعة اللطيفة المرتبة وهو يحمل في بدايته الأوراق والأعشاب اليابسة، ويمازج الطين، فيعبق الثرى بالطهر والأصالة، وتتشرب السواني بوادر الماء كالشفاه العاشقة، تصورت تغريد العصافير وأعشاشها الحالمة، سمعت صدى نداءات الآباء والأمهات لأبنائهم وللعمال والرعاة، تذكرت برد الصباحات وأحسست بلذة شعاع الشمس يلامس الأيدي والجباه بالدفء والعنفوان والحيوية. تذكرت شجيرات الرمان

---

(١) يا دكتور إسحاق ما ذكرته في هذه الصفحات جميل، وإن غلب عليه أسلوب البلاغة والأدب، ومازلنا في حاجة ماسة جداً إلى تفصيلات تاريخية توضح لنا حياة أرض وسكان هذه البلدان العسيرية الممتدة من أبها إلى خميس مشيط. وهناك الكثير من الرحالة والمدونات والوثائق والمذكرات التي أشارت إلى تاريخ الناس في أبها أو على طول الطريق التي تربط بن مدينتي خميس مشيط وأبها. كما أنه مازال هناك كثير من الجوانب الحضارية التي يمكن دراستها والبحث في جزئياتها، ونرجو منك يا ابن السعدي أن تطلعنا على تفصيلات أكثر وبأسلوب تاريخي علمي موثق. (ابن جريس)

بأزهارهـا الزاهية تعـوم صورها على صفحة المـاء، وتلتمع الشمـس في نسق مع الزهر والظل والماء الجاري كوجود الصبايا على مصقولات المرايا، تتخلل البستان في إيقاعات بديعة مـع الظلال المتشابكة والأشعـة الذهبية في أجمل سيمفونيـة تعزفها الصباحات الربيعيـة. تذكرت حيطان المزارع المشرفة على الـوادي وقد اكتضت بالزهور وتشابكت بالأعشـاب وطرزتها شجيرات السنوات والسذاب والعـثرب تتسلق أعواد اليراع المياسة وتلتـف بأشجـار السـرو السامق والشبارق العتيـق. تذكرت حافة البئر يـوم أن كان لها قرنـان بديعان يحمـلان الدراجة والعجل علـى شرفتها والماء يتراءى مـن تلك الشرفة (المشنة) كعين العصفور في غورها البعيد، تتدلى حبال جذب الماء (الرياشي والأسعان والغـروب) من أعلاها لأسفلهـا بتزاوج وآليات متقنة، وإن كانـت بدائية إلا إنها تجسد بحـق النسبة والتناسب بين طاقـة الإنسان واحتياجه وما تفتق عنه تفكيره من استعمال الأشيـاء والموجـودات الطبيعية من محيطـه القريب، وجهوده الذاتيـة، فاض بمنظرها هـذا الوجـدان يوم إن كانت تتـدلى بمهابة وبراعـة واقتدار، وللماء صـوت المطر، ولها أزيـز الهبوب، وأعاصير الرياح تغترف لجة الماء قـدراً وتجبذه من القعر إلى مصبه في (المشنـة)، وعبر المسافة بينهما تتناثر قطرات الماء كاللؤلؤ على جنبات البئر، وتحتشد كشـلال لصوته داخل البئر جلال وحيوية وأصـداء وحراك ينعش المكان ويغمره بالروح والحيـاة. لم نكـن لنعرف قيمة تلـك (التعلية والسقيا)، وما تعنيـه من تحريك الركود وقيمـة العمـل الذاتي والانتاج المحلي إلا بعـد أن باتت المياه آسنـة والعيون متلوثة، وبعد أن أقفـرت الديار، وتعطلت الآبـار، وتهدمت المزارع، وتوحشت القرى، وركنت العجلات الخشبية، واندثـر المنحى، وغابت الثيران والأبقار، وانقرضـت الغنم، وتلاشت الحياة الزراعيـة، أو انحرفت عن مسارهـا الأصيل، وفقدت إنسانهـا وحميميته الفطرية التي طالمـا تفاعل معها بحب وتقارب وفهـم لطبيعتها وطبيعته الحقـة ؛ فأصبحت البساتين يبابا، وتقلصت السفوح، وانطمرت الأودية، وسدت الطرقات، وتراكمت فيها النفايات، وغدت مكبات تمتص مخلفات الفوضوية العارمة والاستهلاك المسعور.

لقد ذهب المزارعون أدراج الرياح، فلا زرع ولا ثمر ولا ورد ولا فل ولا كاذي ولا شيح ولا ريحـان ولا بعيـثران ولا (فتيت ولا حميص ولا وفره)، ولا موسـم، ولا لذة لصباح أو عشـي، ولا جـيرة ولا مشورة، ولا حركـة ولا زول لذكر أو أنثى، الـكل منتزع من جذوره، الـكل يسبـح في تيه الـكل ويـدور في مسار آخـر، تناثر العقـد وتطايرت حباتـه (شذر مـذر)، اخترقتهم الطرقات، واستهوتهم زيوف المدينة، وحشروا في الزحام وفي طوابير

الاستهلاك، وارتهنوا لحياة رتيبة مملة يملؤها الضجر وتسكنها الكآبة وتعذبها العزلة والانفراد، وتضخمت عجلة الاستهلاك وغاب الرونق، وحتى الراديو اختفى بجمالياته، إلا ما تنطوي عليه الذاكرة من ذاك الصوت المترع بالشجن، والمشجون بالرمز والشارة التي تقدح في النفس غبوناً وتشيع في الوجدان الحسرات، لن يخفف من نيران التوجدات والحنين سوى الدمع السخي من عيون جيلنا المخضرم[1].

ثالثاً: رأي وقول:

عندما وصلتني هذه الأوراق من الدكتور إسحاق السعدي، لم أشتق كثيراً لقراءتها، وذلك لاحتوائها على أقوال وعبارات مسجوعة، وكثرة المحسنات البلاغية فيها. ثم قرأتها المرة الثانية وجدتها تحتوي على روايات وأخبار تعكس حياة الأوائل في منطقة أبها وما حولها. بل إنها أثارت شجوني عندما ذكرتني أيضاً ببعض الأعمال والنشاطات التي عاصرناها ومارسناها في قرى الآباء والأجداد من بلاد بني عمرو وبني شهر، كما لحقت على بعض من تلك الأحداث التي عاشها الأبهاويون في مدينة أبها وما حولها. ربما يقول قائلٌ أن هذا السرد التاريخي الذي طبعته ونشرته لهذا الأستاذ الأكاديمي الغامدي لا يرتقي إلى مصاف الدراسات التاريخية القيمة، وأقول لمن يقول بهذا الرأي، أن هذا الكلام غير دقيق، فالتاريخ يجب أن يكتب بأسلوب علمي دقيق موثق، وأن لا يغوص الباحث أثناء كتابة التاريخ في الأساليب والعبارات الخيالية البلاغية، وإن كان إسحاق استخدم شيء من ذلك في ورقاته هذه، إلا أنها تشتمل على معلومات تاريخية عاصرناها وعرفناها، بل إنها تعكس صور حقيقية لحياة الآباء والأجداد ليس في مدينة أبها فحسب وإنما في عموم مناطق جنوب البلاد السعودية. وأرجو من الدكتور إسحاق أن يتوسع في هذه المدونات فيصور لنا التاريخ الاجتماعي والثقافي والاقتصادي الذي رآه وعاصره في أبها وغيرها، خلال النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م). (والله من وراء القصد)

---

(١) يا إسحاق أن حديثك فعلاً ذكرنا بتلك الحياة الهادئة الوديعة التي عشناها في بلاد رجال الحجر وبخاصة في سروات محافظة النماص. إنها كانت أيام جميلة، وحل محلها التمدن والتطور العمراني والحضاري، لكنها غابت تلك الصور الاجتماعية والاقتصادية التي كنا نشاهدها في مزارعنا وأسواقنا ومنازلنا وقرانا. وشباب اليوم بحاجة إلى معرفة حياة آبائهم وأجدادهم، ونحن معاشر الأكاديميين علينا مسئولية عظيمة في تدوين ذلك التاريخ الحضاري بحلوه ومره، وذلك من أجل ربط الماضي بالحاضر وأجيال اليوم بأجيال الأمس. (ابن جريس)